مَوْقِعُ جَامِعَةِ مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ

www.menhag-un.com

يُقَدِّمُ:

(الْمُحَاضَرَة الثَّانِيَة عَشْرَة)

مِنْ مَادَّةِ

[شَرْحُ الْحَائِيَّةِ

فِي اعْتِقَادِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ]

www.menhag-un.com

جامعة
منهاج النبوة
www.menhag-un.com

خَالَفَ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ طَائِفَتَانِ

خَالَفَ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ طَائِفَتَانِ مُتَنَاقِضَتَانِ:

الْقَدَرِيَّةُ، وَالْجَبْرِيَّةُ.

الْقَدَرِيَّةُ: الَّذِينَ يَنْفُونَ الْقَدَرَ.

سُمُّوا بِالْقَدَرِيَّةِ، أَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ: عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ، وَاعْتَزَلَا مَجْلِسَ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ.

فَالْقَدَرِيَّةُ الَّذِينَ نَفَوُا الْقَدَرَ هُمُ الْمُعْتَزِلَةُ.

قَالُوا: إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، وَقَالُوا: إِنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ، فَأَفْعَالُ الْعِبَادِ هُمُ الَّذِينَ يُوجِدُونَهَا اسْتِقْلَالًا، لَيْسَ لِلَّهِ فِيهَا إِرَادَةٌ وَلَا مَشِيئَةٌ؛ لِذَاكَ سُمُّوا بِالْقَدَرِيَّةِ.

وَمَعْنَىٰ هَذَا أَنَّ الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، فَيَكُونُ أَثْبَتَ خَالِقِينَ مَعَ اللهِ، وَاللهُ هُوَ الْخَالِقُ جَلَّ وَعَلَا وَمَا سِوَاهُ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَهِيَ الْمَرْتَبَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ أَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

هُمْ يَقُولُونَ: اللهُ مَعَهُ مَنْ يَخْلُقُ، وَهُمُ الْعِبَادُ يَخْلُقُونَ أَفْعَالَهُمْ، وَهَذَا شِرْكٌ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِذَلِكَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

فَالْقَدَرِيَّةُ هُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّهُمْ -أَيِ: الْمَجُوسَ- أَثْبَتُوا خَالِقِينَ مَعَ اللهِ، الْمَجُوسُ قَالُوا: هَذَا الْكَوْنُ لَهُ خَالِقَانِ: النُّورُ يَخْلُقُ الْخَيْرَ، وَالظُّلْمَةُ تَخْلُقُ الشَّرَّ، وَزَادَ عَلَيْهِمُ الْقَدَرِيَّةُ فَقَالُوا: كُلٌّ يَخْلُقُ فِعْلَ نَفْسِهِ، فَأَثْبَتُوا خَالِقِينَ مُتَعَدِّدِينَ مَعَ اللهِ ﷻ، وَهَذَا شِرْكٌ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ - عِنْدَ الْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ وَعِنْدَ غُلَاتِهِمْ- مُرَتَّبٌ عَلَىٰ نَفْيِ صِفَةِ الْعِلْمِ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَهَذَا مِنْ أَعْجَبِ مَا يَكُونُ؛ لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَا يَعْلَمُ مَا سَيَكُونُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكُونَ فَكَيْفَ يُقَدَّرُ الْمَوْتُ عَلَىٰ الْأَحْيَاءِ؟!

وَكَيْفَ يُقَدَّرُ الرِّزْقُ لَهُمْ؟ وَكَيْفَ يُقَدَّرُ تَدْبِيرُ هَذَا الْكَوْنِ؟!

وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَضَلَّهُمُ اللهُ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِلْمٍ.

قَابَلَتْهُمْ فِرْقَةُ الْجَبْرِيَّةِ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ، قَالُوا: الْعَبْدُ لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ وَلَا مَشِيئَةٌ، وَإِنَّمَا هُوَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ مَا يَحْصُلُ مِنْهُ بِدُونِ اخْتِيَارِهِ، فَهُوَ كَالْآلَةِ بِيَدِ مَنْ يُحَرِّكُهَا، وَكَالرِّيشَةِ فِي الْهَوَاءِ، وَكَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ، وَكَالْجِنَازَةِ عَلَىٰ النَّعْشِ، فَالْعَبْدُ مَجْبُورٌ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ وَتَصَرُّفَاتِهِ، إِنَّمَا هُوَ آلَةٌ تُحَرَّكُ.

فَالْجَبْرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ إِرَادَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَنَفَوْا مَشِيئَةَ الْعَبْدِ وَإِرَادَتَهُ، وَالْمُعْتَزِلَةُ الْقَدَرِيَّةُ عَلَىٰ النَّقِيضِ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ وَإِرَادَتِهِ، وَنَفَوْا مَشِيئَةَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا وَإِرَادَتَهُ.

فَكُلٌّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ غَلَا فِي شَيْءٍ.

الْقَدَرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ مَشِيئَةِ الْعَبْدِ وَإِرَادَتِهِ حَتَّىٰ قَالُوا: إِنَّهُ لَيَسْتَقِلُّ عَنِ اللهِ، وَيَخْلُقُ مَا يُرِيدُ.

وَالْجَبْرِيَّةُ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ مَشِيئَةِ اللهِ وَإِرَادَتِهِ حَتَّىٰ نَفَوْا مَشِيئَةَ الْعَبْدِ وَإِرَادَتَهُ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ تَوَسَّطُوا؛ فَقَالُوا: كُلُّ شَيْءٍ فَهُوَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، وَمِنْهَا أَفْعَالُ الْعِبَادِ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لِلَّهِ، وَهِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ، يَعْنِي: أَنَّ الْعَبْدَ لَهُ مَشِيئَةٌ وَلَهُ اخْتِيَارٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَقِلُّ عَنِ اللهِ -كَمَا تَقُولُ الْقَدَرِيَّةُ- وَلَيْسَ مُجْبَرًا -كَمَا تَقُولُ الْجَبْرِيَّةُ-، بَلْ هَلْ يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ بِاخْتِيَارِهِ، وَمَحْضِ إِرَادَتِهِ؛ وَلِذَلِكَ يُثَابُ عَلَىٰ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَيُعَاقَبُ عَلَىٰ فِعْلِ الشَّرِّ؛ لِأَنَّهُ فُعِلَ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَلَوْ كَانَ مُجْبَرًا فَإِنَّهُ لَا يُعَاقَبُ، كَيْفَ يُعَاقَبُ عَلَىٰ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ اخْتِيَارٌ، وَلَا مَشِيئَةٌ، وَلَا إِرَادَةٌ؟

لِذَلِكَ اللهُ جَلَّوَعَلَا لَا يُؤَاخِذُ الْمَجْنُونَ الَّذِي لَيْسَتْ لَهُ إِرَادَةٌ، وَلَا يُؤَاخِذُ الْمُكْرَهَ الَّذِي لَيْسَ لَهُ اخْتِيَارٌ، وَلَا يُؤَاخِذُ النَّائِمَ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ فِكْرٌ وَلَا عَقْلٌ.

قَالَ ﷺ: «**رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلَاثَةٍ: الصَّغِيرُ حَتَّىٰ يَحْتَلِمَ، الْمَجْنُونُ حَتَّىٰ يُفِيقَ، وَالنَّائِمُ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ**».

لِمَاذَا؟

لِأَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسَتْ لَهُمْ إِرَادَةٌ وَلَا مَشِيئَةٌ، فَلَا يُؤَاخَذُونَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَقْتَ غِيَابِ عُقُولِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ، أَمَّا مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ إِرَادَةٌ وَعِنْدَهُ مَشِيئَةٌ وَاخْتِيَارٌ فَإِنَّهُ

يُثَابُ عَلَىٰ فِعْلِ الطَّاعَاتِ، وَيُعَاقَبُ عَلَىٰ فِعْلِ الْمَعَاصِي؛ لِأَنَّهُ فَعَلَهَا بِاخْتِيَارِهِ وَإِرَادَتِهِ.

وَاللهُ جَلَّوَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]. وَعَمِلُوا: أَسْنَدَ الْعَمَلَ إِلَيْهِمْ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، فَأَسْنَدَ الْعَمَلَ إِلَيْهِمْ.

وَيَقُولُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ٦]. أَسْنَدَ الْكُفْرَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهُ مِنْ فِعْلِهِمْ بِإِرَادَتِهِمْ.

وَيَقُولُ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ [الجن: ٢٣]. فَأَسْنَدَ الْمَعْصِيَةَ إِلَيْهِمْ؛ لِأَنَّهَا مِنْ فِعْلِهِمْ.

فَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ الْفِعْلِ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ الْقَدَرِ: مُقَدَّرَةٌ مِنَ اللهِ جَلَّوَعَلَا، فَهِيَ قَدَرُ اللهِ، وَهِيَ فِعْلُ الْعَبْدِ جَمْعًا بَيْنَ النُّصُوصِ.

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

فَقَوْلُهُ: لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ رَدٌّ عَلَىٰ الْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ يَنْفُونَ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الْعَبْدَ يَسْتَقِلُّ بِمَشِيئَتِهِ وَهِيَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. هَذَا رَدٌّ عَلَىٰ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ مَشِيئَةَ الْعَبْدِ مُسْتَقِلَّةٌ، وَالْعَبْدُ يَفْعَلُ اسْتِقْلَالًا، فَالْآيَةُ رَدٌّ عَلَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ.

وَفِي الْآيَةِ إِثْبَاتُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِيَ هِيَ فِعْلُ الْعِبَادِ، وَهِيَ قَضَاءُ اللهِ وَقَدَرُهُ قَدَّرَهَا عَلَيْهِمْ، وَفَعَلُوهَا بِاخْتِيَارِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ.

وَلِذَلِكَ فَالْإِنْسَانُ الْعَاقِلُ غَيْرُ الْمُكْرَهِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ، يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَصَدَّقَ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ الصَّلَاةَ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ، يَتْرُكُ هُوَ بِاسْتِطَاعَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، فَهُوَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْعَلَ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ، يُقْدِمُ عَلَىٰ الزِّنَا، وَعَلَىٰ شُرْبِ الْخَمْرِ، وَعَلَىٰ أَكْلِ الرِّبَا بِاخْتِيَارِهِ، وَيَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرُكَ الرِّبَا وَيَتْرُكَ الزِّنَا وَيَتْرُكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُوَ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ يَفْعَلُ هَذَا، كُلٌّ يَعْرِفُ هَذَا؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يُمَيِّزُ بَيْنَ مَا هُوَ مُخْتَارٌ فِيهِ، وَمَا هُوَ مُكْرَهٌ عَلَيْهِ، كُلُّ إِنْسَانٍ يَعْلَمُ هَذَا.

الْإِنْسَانُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ أَنْ يَتَبَوَّلَ بِإِرَادَتِهِ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَبَوِّلًا لَا إِرَادِيًّا.

وَالْإِنْسَانُ يُقَالُ لَهُ: عِنْدَنَا وَظِيفَتَانِ: رَاتِبُ إِحْدَاهُمَا أَلْفَانِ، وَالْعَمَلُ فِيهَا سَاعَتَانِ، وَهُوَ عَمَلٌ يَسِيرٌ، هَذِهِ مَعْرُوضَةٌ عَلَيْكَ، وَمَعْرُوضٌ عَلَيْكَ مَعَهَا وَظِيفَةٌ رَاتِبُهَا خَمْسُمِئَةٍ، وَالْعَمَلُ عَشْرُ سَاعَاتٍ، وَهُوَ عَمَلٌ صَعْبٌ، وَيُقَالُ لَهُ: أَتَخْتَارُ الْأُولَىٰ أَمِ الثَّانِيَةَ؟

النَّاسُ جَمِيعًا يَخْتَارُونَ الْأُولَىٰ، هِيَ ذَاتُ رَاتِبٍ عَالٍ، وَذَاتُ عَمَلٍ خَفِيفٍ، لَا يَخْتَارُونَ الثَّانِيَةَ.

إِذَنْ: هُمْ أَصْحَابُ اخْتِيَارٍ.

يَخْتَارُ هَذَا؛ لِأَنَّهُ يَصْلُحُ لَهُ.

يُقَالُ لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ السَّفَرَ أَمَامَكَ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا سَهْلٌ مُعَبَّدٌ مُضَاءٌ سَهْلٌ قَصِيرٌ، وَالْآخَرُ مَخُوفٌ وَهُوَ غَيْرُ مُعَبَّدٍ وَهُوَ مُظْلِمٌ، وَتَعْتَرِضُهُ قَوَاطِعُ فِي الطَّرِيقِ، وَكَذَلِكَ فِيهِ مِنْ قُطَّاعِ الطَّرِيقِ مَنْ فِيهِ، وَيَقُولُونَ لَهُ: هَذَا يُوَصِّلُ إِلَىٰ غَايَتِكَ، وَهَذَا يُوَصِّلُ إِلَىٰ غَايَتِكَ، أَيَّهُمَا تَسْلُكُ؟

لَا شَكَّ أَنَّهُ يَسْلُكُ الطَّرِيقَ الْأَوَّلَ.

إِذَنِ: الْإِنْسَانُ يُفَرِّقُ فِي نَفْسِهِ بَيْنَ مَا هُوَ مُخْتَارٌ فِيهِ وَمَا هُوَ مُجْبَرٌ عَلَيْهِ.

هَذَا فِي أُمُورِ الدُّنْيَا تَجِدُهُ يَمْضِي فِيهِ كَالسِّكِّينِ فِي قِطْعَةِ الزُّبْدِ، وَيَخْتَارُ وَيُثْبِتُ الِاخْتِيَارَ، فَإِذَا جَاءَ الشَّرْعُ، وَقِيلَ لَهُ: صَلِّ، قَالَ: إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيَّ أَلَّا أُصَلِّيَ، وَلَوْ كَتَبَ عَلَيَّ أَنْ أُصَلِّيَ لَصَلَّيْتُ، فَيُقَالُ: وَمِنْ أَيْنَ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَيْكَ أَلَّا تُصَلِّيَ؟

مَا قَدَّرَهُ اللهُ وَكَتَبَهُ لَا يُعْلَمُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْفُذَ الْقَدَرُ حَتَّىٰ يَصِيرَ مَقْدُورًا، وَاقِعًا فِي الْحَيَاةِ يَعْنِي أَنْتَ لَا تَعْلَمُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ حَتَّىٰ تَفْعَلَ، فَإِذَا فَعَلْتَ عُلِمَ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ، هُوَ الْمَكْتُوبُ لَكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْتَ بَعْدَ عَدَمِ الْفِعْلِ أَنَّ عَدَمَ الْفِعْلِ هُوَ الْمَكْتُوبُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

إِذَنْ لَا يُمْكِنُ الِاطِّلَاعُ عَلَىٰ الْقَدَرِ إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِ الْمَقْدُورِ، فَالَّذِي لَا يُصَلِّي يُقَالُ لَهُ: قُمْ فَصَلِّ، فَيَقُولُ: اللهُ كَتَبَ عَلَيَّ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَلَّا أُصَلِّيَ!!

مِنْ أَيْنَ؟

هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِيهَا تَرْجِيحٌ بِغَيْرِ مُرَجِّحٍ يَعْنِي أَنْتَ لَا تَعْلَمُ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ حَتَّىٰ يَقَعَ.

فَهَا هُنَا النِّسْبَةُ مُتَسَاوِيَةٌ، أَنْ تُصَلِّيَ أَوْ لَا تُصَلِّيَ، لَا يُمْكِنُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّكَ سَتُصَلِّي أَوْ لَا تُصَلِّي إِلَّا بَعْدَ وُقُوعِ ذَلِكَ.

فَهُنَا يَأْتِي بِالْجَبْرِ، وَأَنَّ الْكِتَابَةَ تَعْنِي عِنْدَهُ الْجَبْرَ، بَلْ يَدَّعِي الْعِلْمَ السَّابِقَ بِمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

خَلْطٌ وَخَبْطٌ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ عِنْدَ الْجَبْرِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: كُلُّ شَيْءٍ فَالْإِنْسَانُ مَجْبُورٌ عَلَيْهِ، هَذَا لَوْ صَفَعْتَهُ عَلَىٰ قَفَاهُ فَاعْتَرَضَ عَلَيْكَ لَصَارَ مُتَنَاقِضًا فِي مَذْهَبِهِ، يَعْنِي مَنْ قَالَ لَكَ إِنَّ الْإِنْسَانَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ فِعْلِ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ لَا اخْتِيَارَ لَهُ، وَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مَكْتُوبٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، بِمَعْنَىٰ أَنَّ الْإِنْسَانَ مُجْبَرٌ عَلَىٰ هَذَا الَّذِي سَيَكُونُ، اصْفَعْهُ عَلَىٰ قَفَاهُ، فَإِنِ اعْتَرَضَ عَلَيْكَ فَقُلْ لَهُ: لِمَاذَا تَعْتَرِضُ عَلَيَّ، صَفْعُكَ عَلَىٰ قَفَاكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ؟!

خُذْ مَالَهُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ، فَإِنِ اعْتَرَضَ عَلَيْكَ فَقَدْ خَالَفَ مَذْهَبَهُ؛ لِأَنَّهُ إِنِ اعْتَرَضَ عَلَيْكَ، اعْتَرَضَ عَلَىٰ أَنَّكَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مَالَهُ.

أَنْتَ مَجْبُورٌ؛ مَا ذَنْبُكَ؟

أَنْتَ مَجْبُورٌ عَلَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مَالَهُ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي (طَرِيقِ الْهِجْرَتَيْنِ) قِصَّةً تُبَيِّنُ تَنَاقُضَ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ الَّذِينَ سَلَبَ اللهُ عُقُولَهُمْ: أَنَّ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ دَخَلَ عَلَىٰ امْرَأَتِهِ فَوَجَدَ رَجُلًا يَفْحُشُ بِهَا، فَغَارَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ وَأَطَرَهُ، فَأَعْجَزَهُ الرَّجُلُ هَرَبًا، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَىٰ الْحِمَارِ فَرَجَعَ إِلَىٰ الْبَرْدَعَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ الْمَرْأَةَ، فَلَمَّا رَفَعَ السَّيْفَ قَالَتْ: وَيْحَكَ!! تَتْرُكُ السُّنَّةَ، وَتَأْخُذُ بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ؟ فَأَغْمَدَ سَيْفَهُ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ فِيكِ كِدْتُ أَضِلُّ!!

يَعْنِي وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنْ هَذَا الْفَاحِشِ الْفَاسِقِ وَمِنْهَا رَغْمًا عَنْهُمَا، فَمَاذَا يَصْنَعَانِ؟

هَذَا هُوَ الْمَذْهَبُ عِنْدَهُ وَعِنْدَهَا، أَمَّا مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ فَهَذَا فُحْشٌ، وَهَذِهِ فَاحِشَةٌ، وَهَذَا إِذَا كَانَ مُحْصَنًا فَإِنَّهُ يُرْجَمُ، كَمَا تُرْجَمُ هِيَ، وَلَكِنْ أَرْجَعَتْهُ إِلَىٰ هَذَا الْمَذْهَبِ الْبَاطِلِ فِي الْجَبْرِ فَقَالَتْ: تَتْرُكُ السُّنَّةَ تَعْنِي الْجَبْرَ، وَتَأْخُذُ بِقَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ؟

فَانْتَبَهَ الْمِسْكِينُ، فَفَوَّتَهَا.

الْجَبْرِيَّةُ لَا يُطَبِّقُونَ مَا يَأْخُذُونَ بِهِ فِي كُلِّ الْأَشْيَاءِ، لَوْ أَنَّ أَحَدًا اعْتَدَىٰ عَلَيْهِمْ ضَرَبَهُمْ، أَوْ قَتَلَ أَحَدًا مِنْهُمْ، أَلَيْسُوا يُطَالِبُونَ بِالِانْتِقَامِ وَالْقِصَاصِ؟

كَيْفَ يُطَالِبُونَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مُجْبَرٌ لَا اخْتِيَارَ لَهُ؟

أَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ التَّنَاقُضِ؟

هُمْ أَيْضًا يَطْلُبُونَ الرِّزْقَ، وَيَتَزَوَّجُونَ، فَلَوْ كَانُوا مُجْبَرِينَ كَمَا يَقُولُونَ، لِمَاذَا يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ، وَيَطْلُبُونَ إِيجَادَ الْأَشْيَاءِ الْمَعْدُومَةِ؟

هُمْ لَا يُطَبِّقُونَ هَذَا الْمَذْهَبَ الْخَبِيثَ فِي وَاقِعِ الْحَيَاةِ؛ وَلِذَلِكَ يُطَالِبُونَ بِالِانْتِقَامِ وَالْقِصَاصِ، وَيَتَزَوَّجُونَ وَيَطْلُبُونَ الرِّزْقَ، فَهَذَا مِنَ الْقَوْلِ الْبَاطِلِ، وَالْعِيَاذُ بِاللهِ.

وَهَذِهِ نَتِيجَةُ الِاعْتِمَادِ عَلَىٰ الْأَفْكَارِ وَالْعُقُولِ الْمُجَدِّدَةِ أَوِ الْفَاسِدَةِ، وَالِاعْتِمَادِ عَلَىٰ أَقْوَالِ وَآرَاءِ النَّاسِ بِدُونِ رُجُوعٍ إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَفِعْلِ الْأَسْبَابِ، بَلْ فِعْلُ الْأَسْبَابِ مِنَ الْقَدَرِ.

فَأَنْتَ تُؤْمِنُ أَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا تُعَطِّلُ الْأَسْبَابَ، بَلْ تَطْلُبُ الرِّزْقَ وَتَتَزَوَّجُ، وَتَطْلُبُ التِّجَارَةَ، وَتَسْعَىٰ فِي الْأَرْضِ، وَتَطْلُبُ مِنْ فَضْلِ اللهِ، لَا تَقُولُ: أَعْتَمِدُ عَلَىٰ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ؛ فَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُقَدَّرٍ سَوْفَ يَأْتِينِي، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُقَدَّرًا لِي فَلَنْ يَأْتِيَنِي، هَذَا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ.

حَتَّىٰ الطُّيُورُ وَالْبَهَائِمُ بِفِطْرَتِهَا تَذْهَبُ تَطْلُبُ الرِّزْقَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ: تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا**». الطُّيُورُ لَمْ تَقْعُدْ فِي أَوْكَارِهَا، فِطْرَتُهَا تَقْتَضِي أَنْ تَتَحَرَّكَ وَتَذْهَبَ؛ لِتَطْلُبَ الرِّزْقَ، تَغْدُو خِمَاصًا فِي الصَّبَاحِ، وَتَرُوحُ فِي الْمَسَاءِ بِطَانًا شِبَعًا.

فَلا تَنَافِيَ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَفِعْلِ الْأَسْبَابِ، إِنَّمَا يَقُولُ هَذَا الْجَبْرِيَّةُ، وَلَكِنَّ الْأَسْبَابَ لَا تَسْتَقِلُّ بِإِيجَادِ النَّتِيجَةِ، إِنَّمَا الْمُسَبِّبُ هُوَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا

رَدًّا عَلَىٰ الْقَدَرِيَّةِ، فَلَا نَغْلُو فِي إِثْبَاتِ الْأَسْبَابِ كَالْقَدَرِيَّةِ، وَلَا نَغْلُو فِي نَفْيِ تَأْثِيرِهَا كَمَا تَقُولُ الْجَبْرِيَّةُ، بَلِ اتِّخَاذُ الْأَسْبَابِ أَمْرٌ مَطْلُوبٌ؛ ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٦]. ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وَاللهُ أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَأَمَرَ بِالطَّاعَاتِ، وَهَذَا مِنْ فِعْلِ الْأَسْبَابِ، وَنَهَىٰ عَنْ أَسْبَابِ الشَّرِّ كَالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَالْفُسُوقِ.

فَلَيْسَ مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَنْ نُعَطِّلَ الْأَسْبَابَ، بَلْ نَمْضِي فِي طَلَبِهَا مَعَ الْإِيمَانِ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ اللهُ كَتَبَ لَكَ شَيْئًا فَسَيَأْتِيكَ، وَلَكِنْ لَا يَأْتِي لَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ جَالِسٌ، لَا بُدَّ أَنْ تَفْعَلَ السَّبَبَ؛ لِهَذَا قَالَ ﷺ: «**احْرِصْ عَلَىٰ مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا لَكَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ**».

يَعْنِي مَا وَقَعَ عَلَيْكَ مِمَّا يَسُوؤُكَ قَدَّرَهُ اللهُ عَلَيْكَ فَعَلَيْكَ بِالتَّسْلِيمِ. قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ.

فَالْقَدَرُ لَا يُذْكَرُ عِنْدَ التَّكْلِيفِ، وَإِنَّمَا يُذْكَرُ الْقَدَرُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، إِنَّمَا يُذْكَرُ الْقَدَرُ وَيُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، فَإِذَا وَقَعَ مَا يَسُوءُ الْعَبْدَ قَالَ: قَدَرُ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ.

أَمَّا عِنْدَ التَّكْلِيفِ فَيَنْبَغِي عَلَىٰ الْعَبْدِ أَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ، وَأَنْ يَفْعَلَ مَا هُوَ مُكَلَّفٌ بِهِ، فَيَكُونَ آخِذًا بِالْقَدَرِ وَآخِذًا بِالشَّرْعِ.

وَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الصَّحِيحُ النَّاجِي مِنَ الْعَذَابِ، الَّذِي يُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ وَيَلْتَزِمُ بِالشَّرْعِ.

أَمَّا الَّذِي يَجْعَلُ الْقَدَرَ فِي مُوَاجَهَةِ الشَّرْعِ، فَيَحْكُمُ عَلَىٰ الشَّرْعِ بِالْقَدَرِ، فَهَذَا ضَالٌّ.

وَأَمَّا الَّذِي يَسْتَقِلُّ بِالشَّرْعِ وَيُنْكِرُ الْقَدَرَ، فَهَذَا ضَالٌّ.

وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقَدَرِ، وَيَلْتَزِمُونَ بِالشَّرْعِ أَمْرًا وَنَهْيًا.

فَتَفْعَلُ السَّبَبَ فَإِنْ حَصَّلْتَ النَّتِيجَةَ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ لَمْ تُحَصِّلِ النَّتِيجَةَ فَتَرْضَىٰ وَتُسَلِّمُ أَنَّ اللهَ مَا كَتَبَ لَكَ شَيْئًا، وَهَذَا مِنَ الِابْتِلَاءِ.

فَهَذَا الْحَدِيثُ وَاضِحٌ فِي فِعْلِ الْأَسْبَابِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَىٰ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ أَنْ تُعَطِّلَ الْأَسْبَابُ، أَوْ أَنَّ فِعْلَ الْأَسْبَابِ يَسْتَقِلُّ بِإِيجَادِ النَّتَائِجِ كَمَا تَقُولُ الْمُعْتَزِلَةُ، بَلِ الْأَسْبَابُ يَفْعَلُهَا الْعَبْدُ مِنْ طَاعَةٍ أَوْ مَعْصِيَةٍ، وَالنَّتَائِجُ بِيَدِ اللهِ.

فَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُ بِالسَّبَبِ وَلَا يُحَصِّلُ النَّتِيجَةَ، كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَطْلُبُونَ الْوَلَدَ، فَإِذَا تَزَوَّجُوا لَمْ يُرْزَقُوا بِالْوَلَدِ، فَهَذَا مِمَّا قَدَّرَهُ اللهُ، مَعَ الْأَخْذِ بِالسَّبَبِ، وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَفْلَحُونَ الْأَرْضَ، وَلَا تُؤْتِيهِمُ الْأَرْضُ شَيْئًا.

فَلَيْسَتِ الْأَسْبَابُ إِذَا مَا أُخِذَتْ حَتْمًا تَأْتِي بِنَتَائِجِهَا؛ لِأَنَّ الَّذِي يُقَدِّرُ ذَلِكَ هُوَ اللهُ جَلَّوَعَلَا، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.

www.menhag-un.com

مِنْ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدِر لَهُ فَوَائِدُ عَظِيمَةٌ جِدًّا مِنْهَا -وَهِيَ أَعْظَمُهَا-:

* اسْتِكْمَالُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ جَحَدَ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَكْمِلْ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ.

* الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ الْعَبْدَ يَمْضِي وَلَا يَسْتَسْلِمُ لِلْأَوْهَامِ وَالْخَوْفِ، وَإِنَّمَا يَمْضِي وَيَقُولُ: مَا قَدَّرَ اللهُ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ، جَلَسْتُ أَوْ لَمْ أَجْلِسْ.

بِهَذَا حَكَىٰ اللهُ عَنِ الْمُنَافِقِينَ يَوْمَ أُحُدٍ فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

فَلَيْسَ الْجُلُوسُ فِي الْبُيُوتِ يَمْنَعُ مِنَ الْمَوْتِ، وَلَيْسَ الْخُرُوجُ لِلْجِهَادِ يُوقِعُ الْمَوْتَ أَوْ يَجْلِبُ الْمَوْتَ إِذَا لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ، فَهُوَ سَبَبٌ، وَلَكِنْ إِذَا لَمْ يُقَدِّرْهُ اللهُ ﷻ فَلَا أَثَرَ وَلَا نَتِيجَةَ لَهُ، كَمْ يَدْخُلُونَ الْمَعَارِكَ وَيَخْرُجُونَ سَالِمِينَ مُعَافَيْنَ، هَذَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ رضي الله عنه لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ: «مَا فِي جِسْمِي مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَفِيهِ طَعْنَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ»، وَكَانَ يَتَمَنَّىٰ الشَّهَادَةَ، وَخَاضَ مَعَارِكَ عَظِيمَةً، وَتَمَنَّىٰ أَنْ يُقْتَلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلَكِنْ لَمْ يُقَدِّرْ لَهُ اللهُ ذَلِكَ فَمَاتَ عَلَىٰ فِرَاشِهِ رضي الله عنه.

فَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَبْعَثُ عَلَىٰ الشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ، أَمَّا الْقُعُودُ فَلَا يُغْنِي شَيْئًا، ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

فَالْقَضَاءُ لَا بُدَّ أَنْ يَنْفُذَ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَجْرِيَ، وَلَا فَائِدَةَ فِي قُعُودِ الْإِنْسَانِ وَتَخَلُّفِهِ عَنْ فِعْلِ الْأَسْبَابِ النَّافِعَةِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْأَسْبَابِ السَّيِّئَةِ.

فَهَذَا يَبْعَثُ فِي الْإِنْسَانِ الْقُوَّةَ وَالشَّجَاعَةَ وَالْإِيمَانَ بِاللهِ، وَيَنْفِي عَنْهُ الشُّكُوكَ وَالْأَوْهَامَ وَالتَّشَاؤُمَ الَّذِي يُصَابُ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَيَنْفِي عَنِ الْإِنْسَانِ الْوَسَاوِسَ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْإِيمَانِ لَا يَتَأَخَّرُونَ عَنْ طَلَبِ مَا فِيهِ خَيْرٌ وَمَا فِيهِ فَائِدَةٌ؛ لِأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَلَا يَقُولُونَ: نَخَافُ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ.

إِذَا كَانَ الْمَوْتُ مُقَدَّرًا لَكَ سَيَأْتِيكَ وَلَوْ لَمْ تَذْهَبْ إِلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يُقَدَّرْ فَلَنْ يَأْتِيَكَ وَلَوْ كُنْتَ فِي أَشَدِّ الْخَطَرِ.

وَمِنْ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ:

* أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَصَابَتْهُ الْمُصِيبَةُ لَا يَجْزَعُ؛ لِأَنَّهُ يُؤْمِنُ أَنَّ هَذَا بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَهَذَا يُسَهِّلُ مُلَاقَاةَ الْمَصَائِبِ، فَلَا يَجْزَعُ الْإِنْسَانُ، لَا يَلْطِمُ الْخَدَّ، وَلَا يَشُقُّ الْجَيْبَ، وَلَا يَدْعُو بِدَعْوَىٰ الْجَاهِلِيَّةِ، وَإِنَّمَا يَصْبِرُ وَيَحْتَسِبُ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

فَهَذَا يُهَوِّنُ عَلَىٰ الْإِنْسَانِ الْمَصَائِبَ، فَيَرْضَىٰ وَيُسَلِّمُ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ.

هَذِهِ الْفَوَائِدُ مِنْ فَوَائِدِ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ: اسْتِكْمَالُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يَبْعَثُ عَلَىٰ الْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ يُهَوِّنُ عَلَي الْمُسْلِمِ الْمَصَائِبَ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ.

أَمَّا الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ فَإِنَّهُ يَجْزَعُ وَيَتَسَخَّطُ، وَيَحْصُلُ مِنْهُ مَا يَحْصُلُ وَتَسْمَعُ كَثِيرًا عَنِ انْتِحَارِ بَعْضِ النَّاسِ، وَأَنَّ هَذَا الِانْتِحَارَ انْتَشَرَ بَيْنَ أَهْلِ الْمِلَلِ الْأُخْرَىٰ، وَالسَّبَبُ: عَدَمُ الْإِيمَانِ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَإِذَا تَضَايَقَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ نَحَرَ نَفْسَهُ -وَالْعِيَاذُ بِاللهِ-؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، فَلَا يَقُولُ: هَذَا شَيْءٌ مُقَدَّرٌ عَلَيَّ.. هَذَا شَيْءٌ مَكْتُوبٌ عَلَيَّ وَالْفَرَجُ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللهُ ﷻ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥].. ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فَالَّذِي يَنْتَحِرُ وَيَقْتُلُ نَفْسَهُ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَحَمَّلُ الشَّدَائِدَ وَالْمَصَائِبَ.

وَالْأُمُورُ الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْجَبْرِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ أُمُورٌ خَطِيرَةٌ:

يَلْزَمُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْقَدَرِيَّةِ إِثْبَاتُ خَالِقِينَ مَعَ اللهِ، وَهَذَا شِرْكٌ فِي شِرْكٍ فِي الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِذَلِكَ سُمُّوا مَجُوسَ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَيَلْزَمُ عَلَىٰ مَذْهَبِ الْجَبْرِيَّةِ: وَصْفُ اللهِ بِالظُّلْمِ، وَأَنَّهُ يُعَذِّبُ الْعِبَادَ عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ يَفْعَلُوهُ، بَلْ فَعَلَهُ هُوَ، فَاللهُ يُعَذِّبُهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ يَفْعَلُوهُ، وَهُمْ يُحَرَّكُونَ

بِغَيْرِ اخْتِيَارِهِمْ، وَبِغَيْرِ إِرَادَتِهِمْ، فَهَذَا فِيهِ وَصْفُ اللهِ تَعَالَىٰ بِالظُّلْمِ؛ لِأَنَّهُ عَذَّبَ عِبَادَهُ عَلَىٰ شَيْءٍ لَمْ يَفْعَلُوهُ، وَإِنَّمَا عَذَّبَهُمْ عَلَىٰ فِعْلِهِ هُوَ.

وَلَا يَخْفَىٰ فَسَادُ هَذَا الْمَذْهَبِ الْبَاطِلِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

وَرَبَطَ الْعَذَابَ بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ، وَرَبَطَ الثَّوَابَ بِالطَّاعَاتِ وَالْخَيْرَاتِ، فَاللهُ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا.

وَلَكِنَّ الْجَبْرِيَّةَ يَصِفُونَ اللهَ بِالظُّلْمِ، وَأَنَّهُ يُعَذِّبُ الْعِبَادَ عَلَىٰ أَفْعَالِهِ هُوَ، وَهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا، وَإِنَّمَا هُمْ مُحَرَّكُونَ كَالْآلَةِ وَالرِّيشَةِ فِي الْهَوَاءِ، وَهَذَا مَذْهَبٌ بَاطِلٌ، وَهُمْ يُخَالِفُونَهُ كَمَا مَرَّ، فَإِنَّهُمْ إِذَا ظُلِمُوا طَالَبُوا بِرَدِّ الْمَظَالِمِ، وَإِذَا قُتِلَ مِنْهُمْ أَحَدٌ طَالَبُوا بِالْقِصَاصِ، وَإِذَا نُهِبَ مَالُهُمْ طَالَبُوا بِرَدِّهِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ..

مَعَ أَنَّ مَذْهَبَهُمْ يَقْتَضِي أَنْ لَا يُطَالِبُوا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيَلْزَمُ عَلَيْهِ تَعْطِيلُ الْأَسْبَابِ، وَأَنْ يُقَالَ: مَا دَامَ أَنَّهُ قَضَاءٌ وَقَدَرٌ فَأَنَا أَجْلِسُ وَالْمُقَدَّرُ سَيَكُونُ.

وَهَذَا مِنْ سَلْبِيَّاتِ مَذْهَبِ الْجَبْرِيَّةِ، وَمَذْهَبُ الْجَبْرِيَّةِ فَاشٍ فِي جَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ مِنَ الْعَوَامِّ وَغَيْرِهِمْ، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ جَبْرِيٌّ لَا يَأْخُذُ بِالْأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ الْجَبْرِيَّةِ، وَمَذْهَبَ الْإِرْجَاءِ، وَمَذْهَبَ الْخَوَارِجِ مَعًا!!

وَهَذِهِ تَوْلِيفَةٌ عَجِيبَةٌ جِدًّا!! يَعْجَبُ الْمَرْءُ كَيْفَ تَجْتَمِعُ فِي نَفْسٍ وَاحِدَةٍ؟

فَكَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ جَبْرِيٌّ فِي بَابِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، مُرْجِئِيٌّ فِي بَابِ الْإِيمَانِ، وَخَارِجِيٌّ فِيهِ أَيْضًا.

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِذَا غَلَا سِعْرُ الْأُرْزِ -مَثَلًا- خَرَجُوا عَلَىٰ حُكَّامِهِمْ، فَيَتَّبِعُونَ مَذْهَبَ الْخَوَارِجِ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأُمُورِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْعَوَامَّ إِذَا مَا غَلَا سِعْرُ الْأُرْزِ وَالزَّيْتِ وَالسُّكَّرِ قَالُوا: إِنَّ الْحَاكِمَ هُوَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ، وَإِذَا وَفَّرَ لَهُمْ ذَلِكَ قَالُوا: هُوَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَهُوَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ. فَهُمْ جَبْرِيَّةٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، وَهُمْ مُرْجِئِيَّةٌ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ، فَإِذَا قُلْتَ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ: صَلِّ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْكَ. قَالَ: الْعِبْرَةُ بِالْقَلْبِ، مَا دَامَ الْقَلْبُ أَبْيَضَ وَنَظِيفًا فَلَا يُهِمُّ أَبَدًا هَذِهِ الْأُمُورُ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَفُلَانٌ يُصَلِّي الْفَرْضَ وَيَنْقُبُ الْأَرْضَ، وَفُلَانٌ يَحُجُّ بَيْتَ اللهِ الْحَرَامَ، وَهُوَ لِصٌّ كَبِيرٌ!

*** مَا دَخْلُ هَذَا بِهَذَا؟**

أَنْتَ مَطْلُوبٌ مِنْكَ أَنْ تُصَلِّيَ أَنْتَ، وَلَا تَنْقُبَ الْأَرْضَ، وَمَطْلُوبٌ مِنْكَ أَنْ تَحُجَّ وَلَا تَنْهَبَ مَالَ الْآخَرِينَ، فَانْشَغِلْ بِنَفْسِكَ أَنْتَ!

وَلَكِنْ لَا يَعْتَرِفُونَ بِالْأَعْمَالِ، وَيَعُودُونَ إِلَىٰ مَا وَقَرَ فِي الْقُلُوبِ بِزَعْمِهِمْ وَلَوْ صَلَحَتْ قُلُوبُهُمْ لَصَلَحَتْ جَوَارِحُهُمْ، وَلَصَلَحَتْ أَحْوَالُهُمْ؛ لِأَنَّ التَّلَازُمَ بَيْنَ الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ حَتْمٌ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ، لَوْ صَلَحَ الْقَلْبُ لَصَلَحَ سَائِرُ الْجَسَدِ، وَفَسَادُ

الْجَسَدِ وَالْجَوَارِحِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ فَسَادِ الْبَاطِنِ، فَالتَّلَازُمُ بَيْنَ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ حَتْمٌ لَا بُدَّ أَنْ يَقَعَ، وَلَكِنَّ النَّاسَ يَتَغَافَلُونَ.

فَتَجِدُ الْعَوَامَّ خَوَارِجَ مَعَ الْحُكَّامِ، وَتَجِدُ الْعَوَامَّ مُرْجِئِيَّةً فِي بَابِ الْإِيمَانِ، وَتَجِدُهُمْ جَبْرِيَّةً فِي بَابِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ.

فَمَهْمَا طَالَبْتَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ بِالْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ أَرْجَعَكَ إِلَىٰ عَقِيدَةِ الْجَبْرِيَّةِ، قَالَ: وَمَا نَفْعَلُ يَا صَاحِ؛ هَذِهِ أُمُورٌ مُقَدَّرَةٌ؟!

وَلَكِنْ كَمَا قَالَ عَبْدُ الْقَادِرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فُتِحَ لِي فِي الْقَدَرِ رَوْزَنَةٌ، فَأَنَا أُدَافِعُ أَقْدَارَ اللهِ بِأَقْدَارِ اللهِ»، وَهُوَ مَا اسْتَمْلَحَهُ جِدًّا شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ كَمَا فِي «**رِسَالَةِ الْعُبُودِيَّةِ**» لَهُ.

فَالْخَلَلُ الْوَاقِعُ فِي الْأُمَّةِ إِنَّمَا هُوَ فِي النِّهَايَةِ رَاجِعٌ إِلَىٰ الْخَلَلِ فِي الْمُعْتَقَدِ، وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ تَوَفَّرُوا عَلَىٰ بَيَانِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ لِجَمَاهِيرِ الْأُمَّةِ؛ فَاعْتَقَدَتْ دِينَ اللهِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَقَدَ، وَآمَنَتْ بِاللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ، وَأَخَذَتْ بِأَرْكَانِ الْإِيمَانِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تُؤْخَذَ لَتَغَيَّرَ حَالُنَا تَمَامًا! وَلَخَرَجْنَا مِنَ الْمَذَلَّةِ الَّتِي فُرِضَتْ عَلَيْنَا بِسَبَبِ عَدَمِ رُجُوعِنَا إِلَىٰ دِينِنَا، كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إِلَىٰ دِينِكُمْ**».

إِذَنْ رَفْعُ الذُّلِّ، وَكَشْفُ الْمَذَلَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَىٰ الدِّينِ.

فَعِنْدَنَا مَرْحَلَتَانِ:

الْأُولَىٰ: مَعْرِفَةُ الدِّينِ الْمَرْجُوعِ إِلَيْهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ تَصْفِيَةِ مَا لَدَيْنَا مِمَّا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَىٰ الدِّينِ حَتَّىٰ نَعْرِفَ الدِّينَ الْمَرْجُوعَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ، وَخَرَجَ بِهِ الْعَرَبُ الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَصَحِبُوا مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّتَاتِ وَالتَّخَلُّفِ وَالْبُعْدِ التَّامِّ عَنْ مَا كَانَ مِنْ مَدَنِيَّاتِ الدُّوَلِ الْقَوِيَّةِ الْكُبْرَىٰ فِي عَصْرِهِمْ، كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ.

فَخَرَجُوا مِنَ الصَّحْرَاوَاتِ بِمَا مَعَهُمْ مِنْ أَدَوَاتِ الْجِهَادِ وَأَسْلِحَةِ الْقِتَالِ، فَدَانَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا الْقَدِيمَةُ، لَمَّا آمَنُوا بِاللهِ إِيمَانًا صَحِيحًا، وَتَبِعُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ مُتَابَعَةً حَقِيقِيَّةً أَعْلَىٰ اللهُ شَأْنَهُمْ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُمْ مَعَ أَخْذِهِمْ بِأَسْبَابِهِمْ. فَمَا تَوَانَوْا وَمَا قَصَّرُوا، وَإِنَّمَا بَذَلُوا الْمَجْهُودَ فَآتَاهُمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الْمَفْقُودَ، وَرَفَعَهُمْ فِي الْقِمَّةِ الَّتِي لَا تُدَانَىٰ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَكَانُوا عَلَىٰ رَأْسِ الْأُمَمِ فِي الدُّنْيَا الْقَدِيمَةِ، وَوَقَعَ مَعَهُمْ -رضي الله عنهم وَرَحِمَ مَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ- مَا لَمْ يَقَعْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ، فَلَمْ يَحْدُثْ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِيَّةِ قَطُّ فِي هَذِهِ السِّنِينَ الْقَلَائِلِ الَّتِي مَلَكُوا فِيهَا الدُّنْيَا أَنْ مَلَكَتْ أُمَّةٌ الدُّنْيَا عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ الزَّمَنِيَّةِ الْقَصِيرَةِ، وَالنَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا، وَيَتْرُكُونَ لُغَاتِهِمْ لِلُغَةِ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ، وَلُغَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

وَأَمَّا الْيَوْمَ، فَالْمُسْلِمُونَ يَخْرُجُونَ مِنَ اللُّغَةِ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ رُبَّمَا خَرَجَ مِنَ الدِّينِ مَبْهُورًا بِمَا عِنْدَ غَيْرِنَا مِمَّا لَا قِيمَةَ لَهُ مِمَّا غَزَوْنَا -هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ- بِهِ حَتَّىٰ فِي

مَخَادِعِنَا، فَتَغَيَّرَتْ أَفْكَارُنَا وَأَسَالِيبُنَا وَتَصَوُّرَاتُنَا وَأَنْمَاطُ حَيَاتِنَا، فَصِرْنَا لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ.

وَالتَّمَزُّقُ الْوَاقِعُ فِي النَّفْسِ الْمُسْلِمَةِ الْيَوْمَ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ هَذَا التَّنَازُعِ بَيْنَ الْمَوْرُوثِ وَالدِّينِ وَالْعَادَاتِ، وَمَا نُشِّئَ عَلَيْهِ الْمُجْتَمَعُ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَضْرِبُ بِجُذُورِهِ إِلَىٰ مَا يَزِيدُ عَلَىٰ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِئَةِ سَنَةٍ، فَهَذَا لَا يُقْتَلَعُ مِنَ النَّفْسِ بِسُهُولَةٍ وَيُسْرٍ، وَإِنَّمَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي النَّسِيجِ النَّفْسِيِّ لِكُلِّ مُسْلِمٍ، فَيَقَعُ التَّنَازُعُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الْوَارِدِ الطَّارِئِ عَلَيْهِ مِنَ الِانْحِلَالِ وَالْإِلْحَادِ وَالْكُفْرِ وَالزَّيْغِ وَالضَّلَالِ وَالْفَسَادِ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَلْوَانِ الْمَلَذَّاتِ وَالشَّهَوَاتِ. فَيَقَعُ التَّمَزُّقُ النَّفْسِيُّ عِنْدَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْمَوْرُوثِ الثَّابِتِ مِنَ الدِّينِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ وَالْفَضِيلَةِ، وَالطَّارِئِ مِنَ الرَّذِيلَةِ وَالْفُحْشِ الْخَبِيثِ، وَالْفَسَادِ الدَّنِيءِ، وَالِاسْتِهْتَارِ الْمَرِيضِ.

فَهَذَا التَّمَزُّقُ الَّذِي تُحِسُّهُ فِي نَفْسِكَ، وَالْقَلَقُ وَالِاضْطِرَابُ وَعَدَمُ الِاسْتِقْرَارِ سَبَبُهُ:

مَا يَقَعُ فِي سَاحَةِ نَفْسِكَ وَقَلْبِكَ وَرُوحِكَ وَعَقْلِكَ وَفِكْرِكَ مِنَ التَّنَازُعِ، وَالْمَعْرَكَةُ الْقَائِمَةُ بَيْنَ قَدِيمِكَ وَالطَّارِئِ عَلَيْكَ، بَيْنَ دِينِكَ وَالْكُفْرِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَغْزُوَكَ، بَيْنَ قِيَمِكَ وَبَيْنَ هَذَا الِانْحِلَالِ الَّذِي يَهْجُمُ عَلَىٰ قِيَمِكَ. فَهَذِهِ الْمَعْرَكَةُ بِسَاحَتِهَا فِي قَلْبِكَ وَنَفْسِكَ وَرُوحِكَ وَفِكْرِكَ وَعَقْلِكَ هِيَ سَبَبُ قَلَقِكَ؛ لِأَنَّكَ لَمْ تَحْسِمِ الْمَعْرَكَةَ بَعْدُ.

احْسِمْهَا يَا رَجُلُ!

وَاخْلُصْ مِمَّا أَنْتَ فِيهِ، وَصِرْ إِلَىٰ مَاضِيكَ الَّذِي هُوَ حَاضِرُكَ وَمُسْتَقْبَلُكَ إِلَىٰ دِينِكَ فَتَمَسَّكْ بِهِ، وَلَنْ تَتَمَسَّكَ بِهِ حَتَّىٰ تَفْهَمَهُ، وَلَنْ تَفْهَمَهُ حَتَّىٰ تَتَعَلَّمَهُ.

فَتَعَلَّمْ يَا رَجُلُ! وَأَقْبِلْ عَلَىٰ هَذَا الدِّينِ الْعَظِيمِ؛ حَتَّىٰ يُصَحِّحَ اللهُ لَكَ حَيَاتَكَ وَفِكْرَكَ، وَيَرْفَعَ ذِكْرَكَ، وَيُعِزَّ أَمْرَكَ وَمَآلَكَ.

وَاللهُ ﷻ يَتَوَلَّانِي وَإِيَّاكُمْ؛ وَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ.

جامعة منهاج النبوة
www.menhag-un.com